الرياض

يا سلام!؟

مي كحالة

إذا كان الرئيس الأميركي جورج بوش يعتبر أرييل شارون "رجل سلام" فألف سلام على السلام وعلى آلاف الضحايا الذين سيسقطون بفعل هذه القناعة. وليس من دليل أفصح على سلم - أو سلامة - شارون سوى ما يحصل اليوم في فلسطين وما حصل سابقاً في لبنان، وربما يستسيغ هذا العسكري الضخم مناخ هذين البلدين ليمارس رياضته السلمية المفضلة فيهما وهي ليست العدو أو القفز فوق العوائق أو رمي الكرة الحديد، بل كلها معاً بالإضافة إلى الاجتياحات الحربية الكاسحة التي لا تترك وراءها بشراً ولا حجراً.

بالطبع مات السلام في قانا في العام 1996وعاد ليستشهد في جنين في العام 2002.وبين التاريخين رجل أخذ القرار شخصياً في المجزرة الأولى وغطى القرار في المجزرة الثانية وهو شيمون بيريز الذي بات أمام ترويع أرييل شارون يبدو وكأنه معتدل لأن الضحايا التي سقطت بسبب أفعاله أقل مما يسقط على يد خلفه الحالي. لكن المروّع أكثر هو أن يعتبر رئيس الولايات المتحدة الأميركية حينذاك بيل كلينتون والرئيس الحالي جورج بوش أن قتل المدنيين "خطأ عسكري غير مقصود" إذ يأتي في سياق "حق إسرائيل في الدفاع عن النفس". فأين حق العرب في الدفاع عن أنفسهم وعن أرضهم؟

يقول بول فندلي وهو سيناتور أميركي سابق أسقطه اليهود الأميركيون في انتخابات العام 1982لمجرد انه طالب باعتراف بلاده بمنظمة التحرير الفلسطينية ان "كل مسؤول (أميركي) له مكانة رفيعة في وزارة الخارجية أو وزارة الدفاع يعمل على أساس اليقين بأنه سيتعامل مرة في الأسبوع على الأقل مع وفد من الجالية اليهودية". ويروي أن الأميركيين المتحدرين من أصل عربي منقسمون على أنفسهم وإذا طلبوا لقاء مسؤول أميركي فاعل فغالباً ما يجادلون فيما بينهم خلال الاجتماع ولا يتفقون سلفاً على ما يريدون قوله حتى ولو أجمعوا على التنديد بانحياز الولايات المتحدة إلى إسرائيل. وقد أورد فندلي كلامه في كتاب شهير عن تدخل اليهود الأميركيين لصالح إسرائيل إنما أيضاً عن قوة إسرائيل نفسها في واشنطن بحيث يكتفي العرب بتقديم شكاوى عامة فيما تصل الوفود اليهودية وفي يدها لائحة محددة من المطالب. وإذا كان هذا الكلام يعود إلى عقدين من الزمن فإنه لا يزال سارياً لا بل زاد خطورة بعد أحداث 11أيلول 2001لأنه يطرح علينا السؤال الذي نرفض مواجهته ولو بجواب واحد: كيف نخاطب الغرب بدلاً من أن نتخبط في خضم المأساة المتواصلة غير عابئين في تغيير أسلوب تعاطينا مع القوى العظمى لعلها في النهاية تفهم لغتنا أو نحدثها بلغتها من أجل ضمان مستقبل أوطاننا المهددة دوماً بمصلحة إسرائيل أولاً؟

بين قانا وجنين لم يتبدل المشروع. فقط تغيرت أوجه الضحايا وأسماؤهم أو ربما هم أنفسهم يستشهدون فوق تراب لبنان وفي ركام فلسطين فيما جرس كنيسة المهد صامت من هول الحصار المضروب عليه منذ أسبوعين ولا يقرع لينادي العالم الغربي - الأصم - إلى نجدته. فقد عرف التاريخ حالات كثيرة من اللجوء إلى معابد الصلاة للاحتماء من هجمات العدو، ولم يجرؤ المحتل على اقتحامها أو تدنيسها خوفاً من غضب الله عليه، لكن شارون لا يتورع عن تدنيس المسجد الأقصى ولا عن دك كنيسة المهد وكأن اله اليهود لا يزال اله الحرب وليس الإنسان. والمصيبة مضاعفة اليوم لأن ما يجري في فلسطين سبق له أن حصل مراراً في لبنان الذي احتفل قبل يومين بذكرى قانا ومقتل المدنيين فيها الذين احتموا بالقوة الدولية التي يفترض بها أن تكون محايدة فإذا بالقصف "الخطأ" يحولها إلى محرقة يخجل حتى الإسرائيليون من تبنيها فيدعون عدم دقة التصويب من الطائرات الحربية! وكان يفترض بالطيران الإسرائيلي يومها تحييد مقر قوات الطوارئ الدولية لما تتمتع به من حصانة دبلوماسية تجعلها تشبه دور العبادة لأنها تخدم تحت راية السلام العالمي وتزينها اليمامة الزرقاء الداعية إلى احلال الوئام بين الشعوب. لكن الحقد وجه الصواريخ الى هذه الخيمة التي ظن أهل قانا إنها بمثابة الملجأ الآمن الذي لا يمكن المس به فإذا بهم ضحايا بريئة تحترق على مذبح السياسة الإسرائيلية التي لم تر في الجريمة سوى خطأ غير مقصود. وهل تدمير جنين غير مقصود ايضاً أو استمرار الحصار على كافة الشعب الفلسطيني وليس فقط على رئيسه ياسر عرفات؟

أما المأساة الثانية التي توازي القتل الإسرائيلي المنهجي للناس فهي أن كافة العرب يتحدثون طويلاً وكثيراً لكنهم يتوجهون فقط الى الرأي العام الداخلي ويرضونه بالمزايدة الخطابية وبذرف الدموع بينما يهملون العالم الخارجي الذي علينا أن نهز ضميره وأن نخاطب عقله ونحرك عاطفته ليشهد على تكرار المحارق لكن في الخط المعاكس لما عرفوه خلال الحرب العالمية الثانية أو لما قرأوه عنها. فإذا كانت الإدارة الأميركية الحالية تتحرك تحت هول صدمة تدمير برجي مركز التجارة العالمية أو جناح البنتاغون وتخشى أن تصل العمليات الانتحارية إلى أعتاب جبروتها فما علينا إلا أن نبحث عن الكلام المقنع لها لطمأنتها بأن الشعوب العربية لم تتحول بعد الى قنابل بشرية ستنفجر في المدنيين الأميركيين بل انها تريد لنفسها تحديداً ما تريده لأميركيين دولتهم وهو العيش في أمان في أوطانها. والحقيقة أن الحجة العربية اليوم اقوى من أي وقت مضى طالما ان كلمة التحرير باتت تعني في القاموس الفلسطيني الأراضي المحتلة بعد العام 1967وأن العلاقات الطبيعية مع إسرائيل لم تعد ضرباً من المستحيل منذ أعلن ولي العهد السعودي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز بأن التطبيع يستحق على العرب بمجرد تطبيق الدولة العبرية مبادئ مؤتمر مدريد للسلام أي الانسحاب من كامل الأرض في مقابل كل السلام. لقد طوى العرب صفحة رمي الإسرائيليين في البحر تماماً كما كسروا في قمة بيروت طوق المقاطعة المتواصلة إذا هي انسحبت من الأراضي المحتلة بعد العام 1967.لكن المخيف اليوم هو أن شارون يعمد الى تطبيق النظرية الأولى التي وان لم ترم الفلسطينيين في البحر فهي إما تقتلهم أو تشردهم مجدداً في العالم الواسع بينما يمارس هو بذاته قطع اسرائيل عن محيطها الجغرافي عبر رفضه كل المبادرات الرامية الى الخروج من المأزق.

وقد يستوجب الوضع التفكير ملياً في خطاب سياسي عربي موحد ولو بدا الأمر مستحيلاً في الوقت الحالي. لكن من الحنكة السياسية في النهاية وفي أدنى تقدير للخسارة، يمكن استعمال سياسة "الباب المفتوح" في عرض المطالب العربية الممكن تحقيقها لكن مع إرفاقها باحتمالات رد فعل عربي موحد ايضاً اذا لم تتحقق. وتبدو المبادرة العربية التي اقرتها القمة العربية في بيروت كمرحلة متقدمة على طريق الحل لكن يجب تقديمها لواشنطن كمشروع عربي يلتزم به الجميع بدلاً من أن يقر به البعض قسراً لتفادي الخلاف مع المملكة العربية السعودية أو تكتيكياً لتلافي المشكل مع الأميركيين. فإذا كانت هذه المبادرة المدعومة دولياً حتى الآن تبلورت بعد عقود طويلة فلابد اليوم من أن تشكل الإطار الواسع لمخاطبة الغرب الذي لا يفهم منطق موت المدنيين بهدف قتل مدنيين خصوصاً وأنه عاش مرحلة منها لا

تزال تؤثر على خلفيات قراره في "تفهم" رد الفعل الإسرائيلي. وإذا ترافق الكلام السياسي الواقعي الصادر في المبادرة مع صور مخيم جنين ورد الفعل الوحشي على الشعب الفلسطيني الأعزل والمدني هو الآخر والذي يقتله الجيش الإسرائيلي داخل المنزل أو على الطريق الى المدرسة أو موقع العمل، يصل العرب ربما الى الهدف الوحيد الواجب العمل عليه وهو تغيير رأي الدولة العظمى أولاً وبعدها باقي الدول الغربية بأنهم يؤمنون بمنطق الحياة الآمنة لكلا الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي وليسوا هواة مطالبة بالانتفاضة والموت كهدف في ذاته ليرد عليهم شارون بتقديم الحرب والقتل وكأنها أيضاً هدف له في ذاته.

وإذا زار القادة العرب واشنطن في المستقبل القريب، عليهم أن يحملوا ورقة بمطالب محددة، تماماً كما يفعل اليهود والإسرائيليون، لا أن يتحدثوا في العموميات. فهل يأخذ كل مسؤول معه أوراق الضمانات الأميركية التي شكلت أساس مؤتمر مدريد ويسأل الرئيس بوش عن الإنجازات التي تحققت وعن تلك المؤجلة حتى الآن؟ وهل يمكن لعرفات أن يرسل بملف شامل عن مفاوضاته مع الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة ليقول بأنه التزم بمبادئ مدريد في قبول ما قبل وفي رفض ما رفض؟ قدتكون زيارة ولي العهد السعودي فاتحة هذا النهج الجديد في التعاطي مع الأميركيين لأن استمرار العرب في إسماع العالم خطابهم الخشبي الذي لم ينفع منذ خمسين عاماً ولن ينفع في الخمسين الآتية قد يجر المزيد من الويلات عليهم وعلى فلسطين ولبنان لاسيما إذا كان البديل من شارون هو بنيامين نتنياهو أو مثيلا له يرفض الإقرار بعذاب الشعوب العربية ولا يرى سوى جروح الإسرائيليين. أن الكلمة أمضى من السيف أحياناً وقد تصبح في هذه المرحلة السيف الفعلي في مواجهة العنت الإسرائيلي.